جامعة القاهرة
معهد البحوث والدراسات الأفريقية

مجلة الدراسات الأفريقية

* رحلة حج منسا موسى ... قراءة جديدة في ضوء تأويلات الشكري
* الدوافع السياسية للحرب في مجتمع السودان الغربي
* بعض المناظر الصخرية ذات المدلول الديني في تاسيلي ناجر خلال مرحلة الرعي (٤٠٠٠ ق.م – ٢٠٠٠ق.م)
* شواهد المقبرة الملكية في زنجبار مصدرًا لتاريخ أسرة البوسعيد (١٨٤٣- ١٩٧٠)
* الحرب والذهنية في مجتمع السودان الغربي إبان القرنين ٩ - ١٠هـ / ١٥- ١٦م
* النزاع الفرنسي البريطاني حول إقليم وايما وتعيين حدود غينيا وسيراليون (١٨٩٣ – ١٩٠٣)
* تصوير الشعر الأمهري لموجات الجفاف والمجاعة في إثيوبيا
* عبارة السبب في اللغة السواحيلية «في ضوء منهج تحليل المكونات المباشرة»
* الهجرة الدولية الأفريقية
* أثر التغيرات المناخية على الأمن الغذائي في إقليم الساحل الأفريقي
* جرائم المخدرات في محافظة مطروح «دراسة جغرافية»
* مضيق باب المندب دراسة في الجغرافيا السياسية والجيوستراتيجية
* أهمية التمثيل الدبلوماسي في إدارة العلاقات الدولية (دراسة مقارنة بالفقه الإسلامي والقانون الدولي العام)
* دور المجتمع المدني الأفريقي في الآلية الأفريقية لمراجعة النظراء
* دور قطاع النفط في تحقيق التنمية الاقتصادية
* مجتمع الفانتي والضوابط الاجتماعية في غانا «دراسة في الانثروبولوجيا الاجتماعية»
* واقع السياسات التعليمية في ماليزيا ومدى استفادة الجزائر من هذه التجربة

العـدد ٣٦
٢٠١٤

مركز جامعة القاهرة للطباعة والنشر

الحرب والذهنية في مجتمع السودان الغربي
إبان القرنين ٩ - ١٠هـ / ١٥- ١٦م

بطل شعبان محمد غرياني(*)

أطلق الجغرافيون العرب مصطلح السودان الغربي على المنطقة التي تعرف الآن بغربي أفريقيا، وتقع جنوب الصحراء الكبرى والممتدة بين المحيط الأطلنطي غربًا وبحيرة كوري (بحيرة تشاد) إلى المحيط الأطلنطي شمال خط الاستواء وجنوب الصحراء الكبرى بين خطي عرض ١١˚ و ١٧˚ شمالاً[١]. وتمثل هذه المنطقة المجال الموازي لبلاد المغرب وتفصل بينهما الصحراء الكبرى. وبذلك فهي تمتد بين خط الاستواء جنوبًا ومدار السرطان شمالاً، وهي منطقة شبه استوائية مرتفعة الحرارة تكثر بها الأمطار، ويجري بها نهرا السنغال والنيجر[٢]. وشهدت هذه المنطقة قيام ثلاث ممالك سودانية هي مملكة غانة[٣] Ghana، ثم تلتها مملكة مالي Mali[٤] وأخيرًا مملكة صنغي Songhay التي تعد أعظم هذه الممالك الثلاث[٥] (انظر الخريطة[٦]).

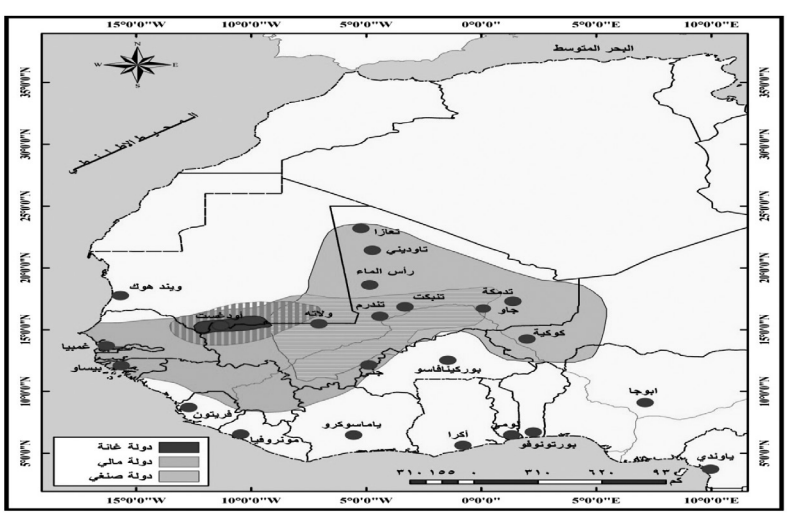

(*) مدرس مساعد بقسم التاريخ (تاريخ إسلامي)، معهد البحوث والدراسات الأفريقية - جامعة القاهرة.

لـقـد أعـطـى جمع غفير من الباحثين جل اهتمامهم للتاريخ العسكري، ودراسة تاريخ الحروب والقادة العسكريين، فتركوا لنا وصفًا لحروب ومعارك، لانتصـارات وهـزائـم ، لخطط وتكتيكـات حـربيـة ، وبطـولات نـادرة ، ولـذلك تقمص جل هـؤلاء البـاحـثين شخصيـة «الإخبـاريين» الذين لم يتجاوز بعضهم مرحلة العرض والوصف للمعارك والحروب، دون إلمام بما هو أهم، وهو تأثير الحرب على المجتمع في جميع جوانبه، وهو تفريغ للتاريخ من هدفه الحقيقي الذي يسعى لدراسة الإنسان وأحواله، والظروف المؤثرة في حياته، وهنا كان لابد لنا من وقفة مع الجانب الاجتماعي في الحروب، ومدى تأثيرها على المجتمع، سياسيًا واقتصاديًا، واجتماعيًا، وذهنيًا، بغض النظر عن مآلات هذه الحروب سواء بالنصر أم الهزيمة بالنسبة لأطرافها. وسوف نسعى من خلال هذه الورقة البحثية رسم صورة لمردود الحرب على الذهنية في مجتمع السودان الغربي إبان القرنين التاسع والعاشر للهجرة/ الخامس عشر والسادس عشر للميلاد، وتنقسم هذه الورقة إلى عناصر ثلاثة:

أولاً - الحرب في ذهنية العامة في مجتمع السودان الغربي.

ثانيًا - الحرب في ذهنية ملوك السودان الغربي.

ثالثًا - العلاقة بين الملوك السودانيين والرواة الجريوت والتأثير في ذهنية المجتمع.

أولاً - الحرب في ذهنية العامة في مجتمع السودان الغربي:

أفضى بنا البحث عن السلوكيات والذهنيات التي واجه بها الإنسان في مجتمع السودان الغربي، ظاهرة الحرب والغزو المتكررة إبان حقبة الدراسة إلى النبش في ظواهر غامضة تفسر ضمن دائرة السحر والكهانة والبدع والمحرمات، وتجلت في خرافاتٍ ذهنية وشعوذة، وسلوكيات سحرية وتنجيمية أحياها المنتفعون من السحرة والرواة وبعض الملوك، وارتبط بها الإنسان في ممالك السودان الغربي أشد الارتباط، إبان الحوادث الحربية، وعلق عليها آلامه وآماله في آنٍ.

تنبه ابن خلدون (المتوفى عام ٨٠٨هـ/١٤٠٦ م) إلى هذه القسمات الذهنية الاستسلامية، الناتجة عن علاقة واضحة بين ضعف الوعي الديني، وتدني مستوى الإدراك العلمي مقابل التعلق بأحكام السحر والتنجيم والطلاسم، وسجل مؤرخنا هذه العلاقة كإحدى ثوابت الذهنية التواكلية العاجزة، مبينًا أن الذي يحمل الإنسان على ذلك في الغالب هو « التشوق إلى عواقب أمورهم وعلم ما يحدث لهم من حياة وموت وخير وشر... ولذلك تجد الكثير من الناس يتشوقون إلى الوقوف على ذلك في المنام والأخبار من الكهان لمن قصدهم بمثل ذلك»[٧]، وهي أمور تجنح بالثقافة الغيبية لدى أبناء المجتمع من منحاها الديني إلى براثن الخرافة والشعوذة.

لقد ارتبطت الحرب بالسحر ارتباطًا شديدًا، ونتيجة لقوة اعتقاد أهل السودان الغربي في السحر صار معظم الملوك ينسبون أنفسهم إلى قوى السحر، ومن الملاحظ أن بعض القادة والملوك الذين اشتهروا بمهارتهم الحربية، ونجحوا في تحقيق الانتصارات في كثير من غزواتهم، اشتهروا بحسب إشارات المصادر السودانية والروايات الشفوية بالمهارة الفائقة في أعمال السحر، ومن ثم كان الواحد منهم يظهر أمام رعيته في صورة الحاكم القوي الذي له مهارة ومعرفة كبيرة بالسحر، فقد كان السحر ملازمًا لأبناء السودان الغربي في شئون حياتهم كافة، نظرًا لشدة اعتقادهم فيه، كما إنهم كانوا يعتقدون في القوى الغيبية والأرواح الشريرة التي اعتقدوا أنها تحميهم من المخاطر[٨]، فالروايات الشفوية المسجلة عن مملكتي مالي وصنغي، والمختصة بفترة الدراسة تشير إلى أن الرجال والأطفال والنساء كانوا يرتدون التمائم في الشعر والعنق والصدر, وأنحاء أخرى متفرقة من الجسد بهدف حمايتهم وتحقيق أهدافهم. ومن بين هذه التمائم كانت هناك تمائم مخصصة للحرب تجلب النصر وتدفع الهزيمة بحسب اعتقادهم، ونتيجة لهذا انتشر السحرة, والحواة, وباعة التمائم, والشعوذات الحافظة من الجن, والعين, والواقية من أسلحة الحديد[٩].

وآمنت الذهنية السودانية ببعض الأساطير المرتبطة بالسحر، حيث روجت الرواية الشفوية لأسطورة أن سني علي Sunni Ali (٨٦٩-٨٩٨هـ/١٤٦٤-١٤٩٢م)

حاكم صنغي بفضل مهارته الفائقة في السحر، كان في مقدوره أن يحول نفسه إلى نسر، وأنه كان يمتلك تعويذة يستطيع بها حجب جنوده فلا يراهم أحد[١٠]. وهكذا استخدمت الرواية الشفوية للترويج لبعض المعتقدات ذات المسحة الأسطورية التي كانت تشاع لأهداف ما، وهو أمور تفصح عن التصورات الذهنية التي واجه بها مجتمع السودان الغربي ظاهرة الحرب إبان فترة الدراسة، وتكشف عن ضعف المستوى الفكري والعقائدي الذي أفضى إلى تصورات انهزامية ومخاوف بعيدة تمامًا عن الواقع، كما يعبر هذا الأمر عن مدى ربط الذهنية السودانية بين الأعمال الحربية الكبيرة والأعمال السحرية التي تجعل من هذه الإنجازات والحروب المتوالية أمراً سهل التصديق لدى ذهنية اعتقدت كثيراً في السحر[١١] وقوته، ومن ثم فلا غرو أن تفضي هذه الذهنية إلى تصورات حول الحروب وقادة الجيوش والجند هي أقرب إلى الأساطير منها إلى الواقع.

وتبرز ملحمة الأسكيا محمد The Askia Muhammed Epic (٨٩٨-٩٣٥هـ /١٤٩٣- ١٥٢٩م) قوة اعتقاد السودانيين في السحر و الكهانة والعرافين فقد كانت أمه كاساي Kassaye [١٢] بارعة في فنون السحر، ويروى أنها عندما حملت بالأسكيا محمد أخبرها العرافون بأنها ستنجب ولدًا سيكون له شأن كبير، وأنه سيتسلم السيف من أبيه، وسيمضي به إلى قتال الأعداء، وسينتصر على أعدائه وسيصل إلى الحكم[١٣]. وتشير إحدى الروايات الشفوية إلى أن كاساي أم الأسكيا محمد هي أخت سني علي، وأن الأخير بحسب نبوءات العرافين اعتزم قتل كل الأبناء الذكور لأخته كاساي، ومنهم الأسكيا محمد، وهو الأمر الذي يشير إلى أن الروايات الشفوية حاولت تصوير سني علي في صورة إنسان دموي، وأن ما فعله الأسكيا محمد بحربه ضد سني بارو بن سني علي كان دفاعًا عن النفس ضد تسلط أسرة سني[١٤]، وهكذا نسجت الروايات التي تدور حول معجزة مولد ذلك القائد الحربي والحاكم المظفر، الأسكيا محمد، وبررت له الحروب التي خاضها، حيث إن الأسكيا محمد تسلم من أبيه سيفًا وحصانًا، واثنين من الرماح، ودرعًا لمحاربة سني

علي قاتل الأطفال، وبهذا أوجدت الروايات الشفوية هدفًا إنسانيًا اضطلع به الأسكيا محمد من حربه ضد آل سني، وليس فقط لمجرد انتزاع السلطة لنفسه[١٥]، كما إن الرواية الشفوية نسبت للأسكيا محمد القيام بقتل سني علي[١٦]، في حين أشارت المصادر السودانية إلى هلاك سني علي عندما كان راجعًا من إحدى الغزوات[١٧].

ومما يؤكد اعتقاد الذهنية السودانية القوي في السحر والقوى الغيبية، أن الجيش في مملكتي مالي وصنغي إبان فترة الدراسة عادة ما كان يلازمه مجموعة من السحرة والعرافين وغيرهم من المتخصصين في أعمال السحر والطلاسم والذين كانوا يقومون ببعض الأعمال التي كانوا يعتقدون في أنها تجلب النصر وتمنع الهزيمة[١٨]، كما كان للسحرة نفوذ كبير في نفوس السودانيين ولهم تأثير على ذهنياتهم، وكان هؤلاء السحرة يتكهنون بمستقبل المعارك الحربية ونتائجها عن طريق فحص أمعاء الحيوانات المضحى بها[١٩].

وأثناء حملة الأسكيا محمد الأول ضد إقليم بَرْكُ أو بربو Borgu الذي كان تابعًا لمملكة مالي في عام ٩١١هـ/١٥٠٥م[٢٠] تشير الرواية الشفوية إلى أن هذا الأسكيا لما فشل في تحقيق الانتصار في معركته الأولى ضد بربو[٢١]، جمع حوله السحرة، واختار منهم واحدًا يسافر إلى مقر إقامة كاساي والدة الأسكيا محمد، ويحمل إليها ملابس الأسكيا، ويطلب منها بعض الكلمات المقدسة التي تساعده على تحقيق الانتصار على عدوه، وعندما عاد رسول الأسكيا أخبره بأن كاساي تشير عليه بأن يسمي ابنه القادم داوودا، وأرسلت للأسكيا بعض بذور القطن، وبيضة دجاجة، وحجرًا، بالإضافة إلى تعليمات مفصلة حول كيفية استخدام هذه الأشياء من أجل تحقيق الانتصار، فأشارت بأنه ينبغي أن يضع الأسكيا كل الخيول أمامه، ثم يرمي البذور وراءه، فهذه البذور ستقف حاجزًا بين الأسكيا وأعدائه، « وستصبح غابة بينه وبين العدو «، ثم يرمي الحجر وراءه أيضًا، فسيصبح بحسب توقع كاساي، وكأنه» جبالاً عالية تفصل بين الأسكيا وأعدائه «، وإذا لم يفلح ذلك، ينبغي جعل الخيول أمامه مرة أخرى، ثم يرمي البيضة خلفه، «وسوف تصبح البيضة نهرًا يصد العدو»[٢٢].

ومن هنا يمكن القول أنه في ظل هذا المنحى أحدثت خرافات شبيهة بالأساطير هلعًا لدى شرائح عريضة عانت من الحرب، وتوترت من آثارها، وراقبت بكل خوف انعكاساتها عليهم وعلى مصادر عيشهم، بفعل ما أشاعه السحرة والمشعوذون من وشايات وأفكار مرعبة جعلت ما يقدم عليه الملوك من حروب لإرهاب الأعداء ترقى إلى مراتب التقديس أحيانًا في نظر الرعية، فقد ارتبطت ظاهرة الغلبة والقوة بالأساطير السودانية التي مجدت القوة والشجاعة بوضوح فتشير أحد تلك الأساطير المتداولة لدى أهل مدينة جاو Gaw عاصمة صنغي أنه لم يكن لهم ملك إلا إنه كان هناك حوت كبير يخرج لهم من الماء وقت الأضحية ويجلس إلى وقت الزوال، فما إن تمكن أحدهم من قتل هذا الحوت "صار عليهم ملكًا مهيبًا مطاعًا"(٢٣).

ولم يكن احترام المجتمع السوداني للشجاعة والقوة، والقدرة على مجابهة الأعداء بالشيء المستحدث على وجدان المجتمع، فمن المعروف أن لكل ظاهرة ولكل عادة في حياة أهل السودان الغربي أساسًا دينيًا كانت تستند عليه نتيجة اعتقادهم القوى في القوى الغيبية، ونتيجة تمسكهم الشديد بمعتقداتهم الوثنية حتى بعد أن دخل الكثيرون منهم في الإسلام، فقد ظل اعتقادهم في الطوطم Totem(٢٤) راسخًا، وكان هذا الاعتقاد مبنيًا على آثار الأجداد ومخلفاتهم، وكانت فكرة الطوطمية هذه تقوم على الإيمان بضعف الإنسان أمام قوى الطبيعة، ولذلك أضحى المجتمع في السودان الغربي يقدس القوة والشجاعة(٢٥).

ويعد احترام الذهنية السودانية للقوة والشجاعة والقدرة على مجابهة الأخطار، قاسمًا مشتركًا بين كل المجتمعات البشرية، لكن الذهنية السودانية تميزت بما نسجته من خوارق العادات والأساطير حول المحاربين الشجعان، وحتى حول بعض العلماء الذين جاهدوا بالسيف من أجل الدعوة الإسلامية، فتشير إحدى المخطوطات إلى أحد العلماء الشجعان من أهل إقليم أقدز Agadez - شمال شرقي مملكة صنغي - وهو عبد الرحمن بن تَكَرْشَا، أنه " الفقيه الولي المنسوب بالسيف وهو الذي قتل جان في منارة مسجد أقدز، لما منع المؤذن أن يؤذن للصلاة، وكلما وصل مؤذن إلى المنارة

للآذان قتله هذا الجان". ويشير صاحب المخطوطة أن قبر هذا العالم الجليل موجود في أقدز، ويتبرك به الناس، ويداومون على زيارته[٢٦].

كما حرصت الذهنية السودانية على تمجيد ذكرى الغزو والانتصارات الحربية المهمة، وسجلت الروايات الشفوية هذا الحرص، وهي أمور تعبر عن نبض المجتمع السوداني، وتصوراته أثناء الحرب، وتعد ملحمة الأسكيا محمد نموذجًا لحرص الذهنية السودانية على الاهتمام بتسجيل أحداث الغزوات والحروب وتخليد ذكرى الانتصارات، تلك الملحمة التي تغنى بها الشعراء الجريوت Griot من السونينكي Soninke الذين هاجروا إلى بلاط الأسكيا محمد وارتبطوا به منذ وصوله إلى السلطة[٢٧]. وقد خلدت هذه الملحمة ذكر الأسكيا محمد باعتباره قائدًا حربيًا خاض العديد من الحروب من أجل شعبه، وأنه استطاع هزيمة أعدائه بكل شجاعة[٢٨]، وهو أمر يعبر عن مدى احترام الذهنية السودانية للشجاعة والقوة.

وإذا كانت الحرب وما تحققه من انتصارات تبعث على الفخر بالنسبة لأهالي الممالك المنتصرة، فإن ما كان يرافقها من آثارٍ نفسية سيئة تمثلت في حالة الفوضى وعدم الأمان، فضلاً عن كثرة أعداد القتلى من الجند والأهالي، ومن كان يقبع منهم في ذل الأسر وربقته، لاسيما في عهود بعض الملوك التي شهدت غزوات كثيرة من أمثال سني علي ملك صنغي، كان لهذا الأمر مردودات نفسية وذهنية سيئة تجاه الحرب، وهو ما نستشفه من خلال تلك الإشارة المصدرية التي تبين ازدياد ضرر سني علي بأهل صنغي، وشعورهم بالغم والهم واليأس نتيجة لطول عهده الذي شهد الكثير من الغزوات والحروب[٢٩].

وهكذا يتضح أن الذهنية السودانية قد غالت في نظرتها للقائد الحربي ووضعته في مكانة تصل لدرجة التقديس، إضافة إلى أنها نسجت حول المحارب أساطير متعددة، وهذا الأمر من الراجح أنه يفسر الطبيعة الحربية التي عاشها المجتمع السوداني، وأهمية الغزو والفتح والانتصار، وتحقيق الغلبة القبلية على حساب أقرانها، بمعنى أن الحرب لم تكن لدفع الاعتداء فحسب، وإنما كانت لشن الغارات

والسيطرة على أراضي وممتلكات الآخرين، بما يحقق الفخر ويمنح السلطة والثروة والقوة من منظور السودانيين؛ لكن هذا الأمر لم يسر على وتيرة واحدة؛ ففي بعض الفترات يئس السودانيون من الغزو مثلما حدث في عهد سنى علي[٣٠].

وكان التأثير الإسلامي على ذهنية العامة أثناء الحروب واضحًا، يؤكد ذلك ما أوردته الرواية الشفوية حول حروب الأسكيا محمد الأول الجهادية ضد قبائل الموشي Mooshi الوثنية في عام ٩٠٤هـ/١٤٩٨م[٣١]، فقد توقف هذا الأسكيا بجانب شجرة في مدينة حاكم الموشي، وكان الموشي يبجلون هذه الشجرة ويقدسونها، والتفت الأسكيا نحو الشجرة، « وفجأة بفضل التدخل الإلهي اقتلعت الشجرة جذورها وسقطت على الأرض «، وعندما سئل الأسكيا كيف أمكنه تحقيق هذه المعجزة أجاب ببساطة « والله أنا لم أفعل شيئًا أكثر من نطق صيغة لا إله إلا الله محمد رسول الله «، وهكذا فكما عبرت الحرب عن الاعتماد على الطقوس المحلية المتوارثة التي ركزت في جزء كبير منها على أعمال السحر، فإن ذلك لم يمنع من الاعتماد في بعض الأحيان على الإيمان بالله، والصيغ الدينية الإسلامية التي كان معمول بها وقت الحرب سنة عن النبي صلى الله عليه وسلم[٣٢].

كما إن محمود كعت (المتوفى عام ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م) فسر أسباب هزيمة جيش مملكة صنغي أمام الجيش السعدي عام ١٠٠٠هـ/١٥٩١م، بأن أهل المملكة ضيعوا حقوق الله، وظلموا العباد، وتكبروا عليهم، فضلاً عن أن مدينة جاو العاصمة كانت في أيام الأسكيا إسحاق الثاني (٩٩٦-٩٩٩هـ/ ١٥٨٨-١٥٩١م) في غاية الفسق وإظهار الكبائر والمنكرات، وتفشت الرذيلة، وشاع بينهم الزنا، ونتيجة لهذا « فسد أمر سنغي وشتت الله شملهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون «[٣٣].

ووفرت الذهنية السودانية الأمان والحماية لبعض المدن مثل مدينة بامبوك Bambuk التي منحت لقب " مدينة الله "، حيث تمتعت بنوع من الحكم الذاتي في عصر مملكة مالي، ولم تشهد تدخلات عسكرية من قبل ملوك المملكة، بل إن ملك مالي كان ممنوعًا من دخولها إلا مرة واحدة في السنة خلال شهر رمضان لتنفيذ

بعض الواجبات الدينية بحسب إشارة صاحب الفتاش[٣٤]، وبالمثل كانت بلدة جعب Joab لا يدخلها ملك مالي، وأشيع عنها أن من يدخلها يكون في مأمن من ظلم الملك حتى وإن قتل ولد الملك نفسه، لأن هذه البلدة سميت " بلد الله "[٣٥]. وهذا يشير إلى تقديس السودانيين لبعض المدن، التي لم يكن يدخلها جيش للغزو نتيجة لقدسيتها، وهي أمور لم تكن مستحدثة، فتقديس بعض المدن التي شهدت انتصارات جيش المملكة كان أمرًا شائعًا لدى أهل مالي[٣٦].

وقد بررت ذهنية العامة بعض الانتصارات وبعض الهزائم الحربية إبان الفترة الزمنية للدراسة، وهي مبررات كان بديهيًا أن ترتبط بواقع الذهنية السودانية التي اعتادت على تصديق الكرامات، والاعتقاد في الأولياء والصالحين، فقد ذكرت بعض الروايات الشفوية أنه عندما تعددت هجمات قبائل الموشي والطوارق Tuaregs على مملكة مالي، وأحدثت هذه القبائل تخريبًا كبيرًا، كان لدى أهل مالي اعتقاد في أن الله سلط عليهم الأعداء لمعاقبة ملوك مالي الذين أساءوا لمنصبهم، وبدلوا سيرة الملوك الأتقياء[٣٧].

كما أشار السعيدي (المتوفى عام ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م) إلى أن بعض الإخوان حدثوه بأنهم سمعوا الفقيه محمد عريان الرأس ذكر أن سنى علي حاصر مدينة جنى Jenni أربع سنين ولم يتمكن من تحقيق الانتصار عليها، لأن الخلفاء الأربعة أبا بكر وعمر وعثمان وعليًا رضى الله عنهم أجمعين "... يحرسون تلك المدينة كل واحد منهم على ركن من أركانها الأربع إلى ليلة أن قام واحد من كبراء الجيش وظلم مسكينًا ظلمًا فاحشًا فسلموا المدينة وفي غدها فتحها سنى علي وملكها..."[٣٨]، وهذا يبين أن الذهنية السودانية أعطت مبررًا لعجز سني علي عن تحقيق الانتصار على أهل جني طيلة أربع سنوات، لأن كرامات الأولياء الصالحين منحت لمدينة جني الحماية ضد غزو سني علي، ثم أعطت الذهنية السودانية مبررًا لنجاح سني علي في غزو المدينة بسبب ظلم أحد قادة الجيش لأحد أبناء المدينة، الأمر الذي دفع الأولياء الصالحين للتخلي عن حماية المدينة وتركها أمام جيش سني علي.

كما أورد السعيدي رواية أخرى يبرهن بها على دور الكرامات في تحقيق الانتصارات؛ مما يعكس سيطرة الصالحين على ذهنية المجتمع السوداني، فذكر أن الشيخ الفقيه الأمين بن أحمد ـــ الذي لم نقف له على ترجمة ـــ لما جاءت غزوة ملك موشي إلى مدينة بنك Banku خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، خرج الناس إلى قتاله وكان هناك جماعة من أهل المدينة يجلسون عند الشيخ المذكور فقرأ على بعض من الدخن، وأمرهم بأكله فأكلوه إلا واحد منهم وقال لهم الشيخ " اذهبوا إلى القتال ولا يضركم من سهامهم فسلموا جميعاً إلا الرجل الذي لم يأكله فمات من ذلك القتال، وانهزم جيش ملك موش وطردوه مع جيشه وما نالوا من أهل بنك ببركة هذا السيد المبارك "[٣٩]. ومن ثم فإن السعيدي يبرهن على اعتقاد المجتمع السوداني في تصديق كرامات الأولياء والصالحين، وهو الأمر الذي فسروا به انتصاراتهم وهزائمهم في آنٍ واحد.

هكذا سيطرت بعض الأساطير المرتبطة بالسحر على ذهنية عامة السودان الغربي أثناء الحرب، ونسجوا من خلالها بعض التصورات الدالة على ضعف المستوى الفكري والتعلق بالسحر والكهانة، فضلاً عما رسمته تلك الذهنية من صورة معبرة عن فخرها بالانتصارات الحربية، وتقديسها للقادة العسكريين، وكان للتأثير الإسلامي على ذهنية العامة أثناء الحرب دور واضح.

ثانيًا - الحرب في ذهنية ملوك السودان الغربي:

أدرك بعض ملوك السودان الغربي مدى إعجاب الذهنية السودانية بالشجاعة والانتصارات الحربية، وهو ما دفع بعضهم إلى اتخاذ بعض الألقاب التي تشير إلى تقديسهم للانتصارات الحربية، وتعبر عن رفضهم الخضوع والاستكانة لأعدائهم، فيشير بعض الباحثين إلى أن لقب « شي « الذي تلقب به سني على حاكم صنغي، معناه بلغة الصنغي «كُنْ أبِيّا لا يرضى بالضيم»، وكأنه تلميح برفض التبعية للملوك الآخرين[٤٠].

كما حرص بعض الحكام على اتخاذ ألقاب تعبر عن شجاعتهم وتبرز مناصبهم العسكرية، وظلوا متمسكين بهذه الألقاب، ومنهم الأسكيا محمد الأول، ومن خلفه من الأساكي، فمصطلح أسكيا يشير إلى منصب قيادي حربي، استخدمه ملوك وقادة الجيش في صنغي، واستخدم اللقب منذ أيام سني علي، حيث كان هناك قائد للجيش يسمى أسكيا بَغْنَ، ثم وصل الأسكيا محمد بن أبي بكر إلى حكم صنغي، وظل محتفظًا بلقبه العسكري الذي يبعث على التقدير والاحترام والمهابة في نظر رعيته(٤١).

ولما كان مجتمع السودان الغربي يعتقد في السحر والقوى الغيبية أشد الاعتقاد، فقد استغل بعض الملوك السودانيين هذه المسألة في كسب بعض الشرعية في نظر رعيتهم، ولذلك فإنه لما كانت ممالك السودان الغربي تعتمد على استراتيجية الحرب والغزو، كان الحكام يعتمدون على النفوذ العسكري للاحتفاظ بسلطتهم، فضلاً عن اعتمادهم على قوى غيبية ودينية تعزز تلك السلطة، وتزيد من مشروعية الحرب(٤٢)، لاسيما وأن وصول الكثيرين من هؤلاء الملوك إلى السلطة غالبًا ما كان يتم عن طريق الحرب والقوة العسكرية، فكان هذا إيذانًا ببحث الملك عن بعض المميزات التي يضفي بها الشرعية على نظام حكمه.

ولم تختلف ذهنية الملوك السودانيين عن ذهنية عامة المجتمع في الإيمان بالسحر والقوى الخارقة التي اعتقدوا في أنها تمنحهم القوة، بدليل إشارات الواردة في الروايات الشفوية والتي تبين أن بعضًا من هؤلاء الملوك برعوا في السحر، ونسبوا لأنفسهم القوى الخارقة التي تكسبهم المهابة في نفوس أعدائهم، وتكسبهم الاحترام والتقديس في نظر شعوبهم(٤٣)، ومن أمثلة هذا ملحمة سندياتا Sunjata(٤٤) التي أشارت إلى تسخيره قوة غامضة لمساعدته في تحقيق الانتصار، كما إن ملوك صنغي الذين جاءوا بعد علي كولن Ali Kolon وحملوا لقب سني Sunni الذي فسره البعض على أنه يعني " الساحر"، يشير إلى أهمية أن يكون لدى الملك مهارة في السحر، فكانت القوة الحربية والسحر عاملان مؤهلان للحكم في نظر

المجتمع السوداني[٤٥]، فقد كان سني علي بارعًا في فنون السحر، وأشيع عنه خوارق العادات والأساطير[٤٦].

ويؤكد هذا الأمر أيضًا إشارات المصادر السودانية والروايات الشفوية التي بينت دور السحر في تحقيق القادة العسكريين والحكام الانتصارات على الأعداء، وهي مسألة استمرت راسخة في أذهان السودانيين لفترة طويلة، وهو ما ينطبق على سومانجورو Sumanjoro ملك الصوصو Sosso، وسندياتا قائد الماندنجو Mandingo وملك مالي[٤٧]، وسني علي، وأسكيا محمد الأول ملكي صنغي، فهؤلاء جميعًا اعتبرتهم الروايات الشفوية قادة لا يقهرون، لأنهم كان سحرة محترفون قبل أن يكونوا قادة عسكريين[٤٨].

ولم يمنع انتشار الإسلام في بلاد السودان الغربي في بدايات القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، من اعتقاد الملوك المسلمين في تأثير القوى السحرية هذا الاعتقاد الذي نشأ في ظل الوثنية، ولم يتغير الوضع كثيرًا بعد انتشار الإسلام، فقد لجأ بعض الملوك المسلمين إلى استخدام مهارتهم السحرية في تحقيق الانتصارات في الحروب وقهر الأعداء، وهو ما فعله سني علي حاكم صنغي، ولذلك كان السودانيون يعتقدون أنه القائد الذي لا يقهر أبدًا، نتيجة مهارته في السحر[٤٩]، وتشير الروايات الشفوية أيضًا إلى أن انتصارات سني علي في غزواته كانت تقف وراءها قوة سحرية سخرها سني علي الذي لم يستطع أعداؤه هزيمته لأنه هذه القوة السحرية مكنته من الاختفاء عن أعين أعدائه أثناء مواجهته لهم، وكان أحيانًا يتحول إلى طائر[٥٠]، بل تشير تلك الروايات إلى أن سني علي كان بإمكانه التحول إلى أشياء كثيرة، فكان يتحول إلى قط، وكلب، ودجاجة، وكان بحسب المأثور الشفهي» يسمع كل ما يحدث في الأرض والسماء»[٥١].

واستمر اعتماد ملوك السودان على السحرة في حروبهم، فحينما سمع أسكيا إسحاق الثاني (٩٩٦-٩٩٩هـ/ ١٥٨٨-١٥٩١م) بقدوم الجيش السعدي، جمع مائة وأربعة ألف

مقاتل لمواجهة هذا الجيش، ولم يكتف بذلك حيث جمع إليهم أيضًا « أشياخ السحرة وأهل النفث في العقد وأرباب العزائم والسيمياء ظنًا منه أن ذلك يغنيه شيئًا»[٥٢].

وهكذا كان بديهيًا ألا تختلف ذهنية الملوك السودانيين وتصوراتها أثناء الحروب عن ذهنية عامة المجتمع، بل إن ذهنية هؤلاء الملوك كانت تتشكل في غالب الأحيان بناء على تصورات الذهنية السودانية العامة، ونظرتها للحرب، لذلك سعى الملوك السودانيون لإيجاد طرف وسيط بينهم وبين العامة ينسج الروايات والأساطير والتصورات الذهنية للسودانيين خلال الحروب، واضطلع بهذا الدور الرواة الذين أطلق عليهم «الجريوت».

ثالثًا - العلاقة بين الملوك السودانيين والرواة الجريوت والتأثير في ذهنية المجتمع:

ارتبطت مصالح السلطة الحاكمة بمجموعة من السحرة والمشعوذين، والرواة الجريوت، الذين ارتبطوا بالقصر الملكي في كثير من الأحيان، وحظوا بكثير من الإغداق والتوسعة من قبل الملوك[٥٣]، ساهموا بدورهم في التأصيل لمثل هذه الأفكار والمعتقدات التي رسخت بأذهان السودانيين، وجعلوا من الملوك « قوة مطلقة لا يمكن قهرها « نتيجة مهارتهم في السحر التي لا تنفصل عن قوتهم الحربية.

وإذا كانت الحرب قد أعطت تميزًا لبعض الحرفيين والصناع الذين ارتبطت حرفهم بتغطية متطلبات الجيش في مملكتي مالي وصنغي، فعلى المستوى الذهني أعطت الحرب مكانة مهمة للشعراء ورواة الملاحم البطولية من « الجريوت Griots "، بدليل ارتباطهم بالديوان الملكي، وتخصص هؤلاء في سرد قصص الماضي التي تمجد البطولات والانتصارات الحربية[٥٤]، فقد لعبت مجموعة من الشعراء الذين أطلق عليهم اسم « جيزيري دونكا Jesere Dunka " هذا الدور في عهد الأسكيا داوود (٩٥٦-٩٩٠هـ/١٥٤٩-١٥٨٢م)، الذي خاض عدة حروب[٥٥]، وهو الأمر الذي يعني أن الجريوت اضطلعوا بدور مهم يتمثل في شحن ذهنية المحاربين بأمجاد أجدادهم وبطولاتهم.

على أي حال، فقد نشأت في ظل الحروب ثقافة ملحمية عبرت عما يدور بذهن السودانيين، ومدى نظرتهم لملوكهم، وتمجيدهم للانتصارات التي حققوها، وجعلوا لتلك الأحداث الحربية أهمية كبرى أكدتها الملاحم الشعرية التي كان السودانيون حريصين على سماعها، لأن الحرب والانتصارات احتلت موقعًا مهمًا في ثقافة السودانيين وذاكرتهم التي دأبت على الإعجاب بالشجاعة والبطولات الحربية، لذلك كان الملك يفاخر بحروبه أمام رعيته في المناسبات المهمة، ففي العيدين وكما يروي ابن بطوطة (المتوفى عام ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) كان ملك مالي منسا سليمان (٧٤٢-٧٦١هـ/١٣٤١-١٣٦٠م) يجلس بعد العصر على كرسيه (البنبي)، ويأتي السلحدارية بسلاحهم من السيوف والرماح المصنوعة من الذهب والفضة وأغمادها مصنوعة من الذهب والفضة أيضًا، ثم يأتي دوغا الترجمان وينصب له كرسي فيجلس عليه، ويضرب بآلةٍ مصنوعة من القصب ويغني دوغا بشعر يمدح فيه الملك، ويروي غزواته وأفعاله، ويغني النساء والجواري معه ويلعبن بالأقواس. ويكون معهن نحو ثلاثين من الغلمان كل واحد منهم يمسك بطبلة يضرب عليها، ثم يأتي بعض البيضان فيلعبون بالسيوف، ويلعب دوغا بالسيف أيضًا، وعند ذلك يأمر الملك له بالإحسان، فيحصل على صرة بها مائتي مثقال من التبر، ثم يقوم قادة الجيش الذين يطلق عليهم « الفرارية «، فينزعون قسيهم شكرًا للملك، وبالغد يعطي كل واحدٍ منهم لدوغا عطاء على قدره. وفي كل يوم جمعة بعد العصر يفعل دوغا مثل هذا الأمر. ثم يأتي دور الشعراء الذي يطلق عليهم «الجُلا» Gulla وأحدهم يسمى "جالي" Gali فينشدون أشعارهم بين يدي الملك مذكرين إياه بأن هذه المصطبة التي يجلس عليها "البنبي" جلس عليها قبله ملوك كثيرون، ويذكرونه بأعمالهم المجيدة، وعليه أن يفعل الخير والأعمال المجيدة كي تذكر بعد موته[٥٦].

ونرجح أن ثمة ارتباط بين مصالح السلطة المقررة للحروب، وبعض المنتفعين من المنجمين والسحرة والرواة، جعل الملوك حريصون على تقريب السحرة والمشعوذين والرواة في مجالسهم، وأسهم في التأصيل لصورة ذهنية رسمها أولئك

السحرة والرواة بما يخدم أهداف الملوك وتطلعاتهم في الحروب، ويخدم سياساتهم إزاءها. إذ أنه لما كان للبطولة والشجاعة هذه المكانة المهمة في ذهنية المجتمع السوداني، فقد كان بديهيًا أن يبحث الملوك على مؤهلات بطولية تمكنهم من رسم صورة ذهنية تعبر عن « ملك قوي قاهر للأعداء»، وقد أفضى هذا الأمر إلى وجود ارتباط قوي بين رواة الملاحم البطولية من الجريوت بالملوك والحكام والترويج لهم والتأثير على ذهنية العامة. ولهذا دأب الرواة والشعراء الجريوت على تصوير الملك « البطل» على أنه ولد في بيئة خطرة يتربص به الأعداء، وكلها أمور تدفعه إلى القيام ببعض الحروب، مثلما هو الحال في ملحمة سنديانا[٥٧]، وملحمة الأسكيا محمد[٥٨] فقد أخذ رواة هذه الملحمة ينسجون الروايات الأسطورية حول حياة الأسكيا محمد بدءًا من مولده وحتى وفاته[٥٩].

ونتيجة الامتيازات التي حازها الجريوت جراء ارتباطهم بالبلاط الملكي خلال فترة الدراسة، ومدحهم للملوك وشجاعتهم وبطولاتهم، مجدت الروايات الشعرية للجريوت القادة والملوك الذين خاضوا الحروب وانتصروا فيها، فوصفت سني علي بالشجاعة التي لا تنتهي في مواجهة الأعداء، وأنه رجل صلد لا مثيل له، وأنه حظي باحترام أبناء مملكته[٦٠]، وأشادت الروايات الشفوية بسني علي تقريبًا بنفس الدرجة التي هاجمته بها النصوص المصدرية المكتوبة[٦١]، ويرجح أن هذا مرجعه إلى أهمية الشجاعة والانتصارات الحربية في ذهنية المجتمع من ناحية، وأن سني علي لم يكن يختلف عن كثير من أبناء المجتمع السوداني الذين اختلطت عقيدتهم الإسلامية ببعض التقاليد المحلية، وبالتالي لم تعتبره الروايات الشفوية معاديًا للإسلام على نحو ما فعل أصحاب المصادر السودانية.

ورغم ذلك فإن بعض الرواة الجريوت اتفقوا أحيانًا مع الشهادات المصدرية التي تناولت أسرة سني علي بالنقد، فأثناء حرب الأسكيا محمد ضد سني بارو Sunni Baro عام ٨٩٨هـ/١٤٩٣م قاد بعض الرواة والشعراء الجريوت حملة كلامية ضد سني بارو، وصوروا للناس الشر المحدق بهم نتيجة سيطرة أسرة

سني على الحكم، ومدى الشر الذي سيلاقونه على أيدي سني بارو مثلما تعرضوا للشرور على يد أبيه من قبل[٦٢]. وبهذا نجد أنه عندما كان سني علي متربعًا على عرش مملكة صنغي، يقود الحروب ويحقق الانتصارات، انهالت عليه أوصاف البطولة والشجاعة النادرة من قبل الرواة والشعراء الجريوت، ولما بات سقوط أسرة سني مسألة وقت، شارك الجريوت، معارضي حكم هذه الأسرة، وأخذوا يكيلون الاتهامات لسني علي، ووصفوا استمرار سيطرة أسرة سني على الحكم «بالشر المحدق»، ثم ارتبط الجريوت بقصر الأسكيا محمد الأول بعد انتصاره على سني بارو وقضائه على أسرة سني، وأصبح الجريوت يتغنون بانتصارات الأسكيا محمد وخلفائه، وهو الأمر الذي يرجح معه الباحث وجود ثمة اتفاق بين القائد محمد بن أبي بكر التوري (الأسكيا محمد)، والجريوت – بحكم قدرتهم على التأثير في المجتمع – لكي يساهموا معه في إسقاط أسرة سني، مقابل الامتيازات التي حصل عليها الجريوت فيما بعد حينما التحقوا بالقصر الملكي للأسكيا.

على هذا لم تكن الحرب في ممالك السودان الغربي مجرد مواجهات حربية تنتهي بهزيمة طرفٍ وانتصار آخر، وإنما واكب هذه المواجهات تصورات ذهنية وعادات وطقوس محلية منذ نشوب الحرب إلى أن تضع أوزارها، وساهم الملوك الذين كان أغلبهم قادة عسكريون في صياغة هذه التصورات معتمدين على مجموعة من السحرة والمشعوذين، والرواة الجريوت، الذين نسبوا خوارق العادات والأساطير إلى ملوك السودان الغربي على نحو يبعث المهابة في نفوس أعدائهم، وفي نفوس رعيتهم أيضًا.

هوامش الدراسة

(١) ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى،١٩٧٠، ص ١٠؛ حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨، ص١٣٧؛ حسين مراد: الصلات بين المغرب والسودان الغربي (خلال القرن ٢-٦ هـ /٨-١٢م) جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا ، الإسلام في أفريقيا ، الكتاب الحادي عشر ، ٢٠٠٦، ص ٣٧٣.

(٢) البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د. ت، ص ١٧٣، ١٧٧.

Hunwick, John: A Region Of The Mind: Medieval Arab Views Of African Geography And Ethnography And Their Legacy, Sudanic Africa, No.16,(2005), pp.111-112.

(٣) غانة: بفتح الغين المعجمة، وألف، ثم نون مفتوحة، وهاء في آخرها - هي بلد بأرض السودان، وليست هي غانا الحديثة التي تحمل هذا الاسم حاليًا، إذ أن غانا الحديثة كانت تسمى ساحل الذهب، ثم تسمت باسم غانا تيمنًا؛ فهي تقع على بعد نحو ألف ميل جنوبي غانة القديمة. أما موقع غانة القديمة فهو محل خلاف، وقد ورد في المصادر أنها مدينتان على ضفتي نيلها، إحداهما يسكنها المسلمون والثانية يسكنها الكفار، انظر: البكري: مصدر سابق، ص ١٧٥؛ الإدريسي: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، تحقيق روبيناتشى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٤، جـ١، ص ١٧، ١٨.

(٤) أنشئت مملكة مالي الإسلامية على يد شعب الماندنجو (٦٢٨- ٨٩٤هـ/ ١٢٣٠- ١٤٨٨م) وكان أول ملوكها سندياتا (٦٢٨- ٦٥٣هـ/ ١٢٣٠- ١٢٥٥م) الذي حارب الصوصو وانتصر عليهم، فكان هو المؤسس الحقيقي للمملكة. غير أن منسا موسى يعد من أشهر ملوك مالي قاطبة، وفي عهده امتدت رقعة مالي بين نهر السنغال في الغرب وبحيرة تشاد في الشرق وشملت خمسة أقاليم هي: مالي، وغانة، وكوكو، وصوصو، وتكرور (السنغال)، كما ضم صنغي إلى حظيرة هذه المملكة، وشهدت مالي في أيام منسا موسى ازدهارًا إداريًا واقتصاديًا، للمزيد حول هذه المملكة الإسلامية - انظر ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ضبطه ووضع حواشيه الأستاذ خليل شحادة، دار الفكر العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠١، الجزء السادس، ص٢٦٦- ٢٦٨؛ ارجع أيضًا إلى إبراهيم طرخان: دولة مالي الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٧٤.

(٥) جميلة التكيتك: مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير ، منشورات مركز جهاد الليبيين، طرابلس، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، ص ٢٦.

(6) Conrad, David: Empires Of Medieval West Africa Ghana, Mali, And Songhay, Acid-Free Paper, U.S.A 2005, p. 135.

(٧) العبر، ج١، ص ٤١١ .

(٨) محمد عبد الله النقيرة: التأثير الإسلامي في السودان الغربي من بداية القرن السادس حتى نهاية القرن العاشر الهجريين، رسالة دكتوراه، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٨٠، ص ٢٤٨.

(9) Paul Marty: Études sur l'Islam et les Tribus du Soudan, Tome II. La Région de Tombouctou (Islam songaï) Dienné, le Macina et Dépendances (Islam Peul), Éditions Ernest Leroux, Paris, 1920, PP. 123-124.

انظر هوبير ديشان: الديانات في أفريقيا السوداء، ترجمة أحمد صادق حمدي، المركز القومي للترجمة، سلسلة ميراث الترجمة، العدد ١٧٦٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١١، ص ٢٨، ٦٤، ٨٦.

(10) Jean Rouch: Contribution a l Histoire des Songhay, Dakar, 1961, p. 183-184.

(١١) أشار العمري إلى أن أهل مملكة مالي كثر لديهم استعمال السحر والسم، ولهم عناية بهما وتدقيق فيهما، وعندهم حشائش وحيوانات يركبون منها السموم القاتلة ولاسيما من نوع من السمك يوجد عندهم، ومن مرارات التماسيح التي تحوي سمومًا لا دواء لها، انظر: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق محمد عبد القادر خريسات وآخرين، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات، ٢٠٠١، المجلد ٤، ص ٧٥.

(١٢) يبدو أن أم القائد العسكري مثلت شخصية محورية في الملاحم، والروايات التي نسجت حول هؤلاء القادة، ففي ملحمتي سندياتا، والأسكيا محمد، نجد أن سوجولون والدة سندياتا، وكاساي والدة الأسكيا محمد، قد لعبتا دور البطولة في الهروب بالطفلين الصغيرين (سندياتا، والأسكيا) من بطش عدويهما (سومانجورو، وسني علي)، ثم أخذت كل من سوجولون، وكاساي، تهيئان لطفليهما ظروفًا تجعل منهما قادئدين بارعين، انظر:

Stephen Belcher: Epic Traditions of Africa, Indiana University Press, USA, 1999, PP. 103-104.

والسؤال الذي نطرحه: هل للتأثيرات المحلية التي رفعت شأن المرأة، وجعل مسألة "توريث ابن البنت" هي المفضلة والشائعة في ممالك السودان الغربي دور في كتابة هذه الملاحم ؟

(13) John William Johnson and Thomas A. Hale and Stephen Belcher: Oral Epics from Africa Vibrant Voices from A Vast Continent, Library of Congress, 1997, PP. 127-129, Stephen Belcher: Op. Cit, P. 168.

(14) Nohou Malio:The Epic of Askia Mohammed, Edited and Translated by Thomas A. Hale, Library of Congress, 1996, P. 17, Thomas A. Hale: Scribe, Griot, and Novelist Narrative Interpreters of the Songhay Empire, University of Florida Press, USA, 1990, P.74.

يشير نوحو ماليو في ملحمة الأسكيا محمد أن سني علي قام بقتل سبعة أبناء ذكور من أبناء أخته كاساي، وهم إخوة الأسكيا محمد، وهو ما دفع الأخير للانتقام لهؤلاء الأخوة من خاله سني علي، فقام بقتل سني بارو بن سني علي، وانتزع منه حكم جاو، انظر:

Nohou Malio: Op. Cit, PP. 17-18, Sean Kilpatrick: Animism, Syncretism, and Hardness: The Epic of Askia Mohammed, in: Christopher Wise (Editor): The Desert Shore Literatures of the Sahel, Lynne Rienner Publishers, USA, 2001, P. 89.

(15) Nouhou Malio: Op. Cit, PP. 21- 22, John William Johnson and Thomas A. Hale and Stephen Belcher: Oral Epics from Africa, PP. 127-129, Thomas A. Hale: Op. Cit, P.75.

(16) Nouhou Malio: Op. Cit, PP. 22, 24.

(17) Sean Kilpatrick: Op. Cit, P. 89.

(18) Thomas A. Hale: Op. Cit, P.38.

(١٩) نبيلة حسن: في تاريخ الحضارة الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ت، ص ٢٤٨.

Bovill: The Golden Trade of the Moors, London, Oxford University Press, 1961, P. 53.

(٢٠) كعت: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، نشره هوداس ودولافوس، مطبعة إنجي، باريس، ١٩١٣، ص ٧١؛ السعيدي: ملوك السودان أهل سنغي وقصصهم وأخبارهم وسيرهم وغزواتهم وذكر تنبكت ونشأتها ومن ملكها من الملوك، نشره هوداس، مطبعة أنجي، باريس، ١٨٩٨، ٧٦.

(21)Nohou Malio: Op. Cit, P. 29.

(22) Ibid, PP. 33-34, Thomas A. Hale: Op. Cit, PP. 91-92, Sean Kilpatrick: Op. Cit, P. 94.

(٢٣) السعيدي: مصدر سابق، ص ٣٠.

(٢٤) الطوطم: كائنات حية تحترمها بعض القبائل في السودان الغربي، وكان كل فرد من أفراد القبيلة يعتقد بوجود علاقة نسب بينه وبين أحدها، والطوطم قد يكون نباتًا أيضًا، وكان يغلب على ظن السودانيين أنه يحمي صاحبه، ولهذا فإن صاحبه كان يحترمه ويقدسه، انظر هوبير ديشان: مرجع سابق، ص ١٢؛ محمد علي ياسين حامد: ذهب أفريقيا جنوب الصحراء ودوره في التجارة العربية الإسلامية منذ القرن الرابع وحتى القرن التاسع الهجري، العاشر إلى الخامس عشر الميلادي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٨٧، ص ٤٦.

(٢٥) نعيم قداح: أفريقيا الغربية في ظل الإسلام، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط٢، ١٩٧٥، ص ٣٠.

(٢٦) أمن بن أحمد الأنصاري: ذكر خبر قبور ومساجد أهل أهير في أكدز، مخطوطة بقسم المخطوطات العربية والأعجمية- جامعة نيامي ، رقم ٥٩، ورقة ١.

(27) Thomas A. Hale: : From the Griot of Roots to the Roots of Griot: A New Look at the Origins of A Controversial African Term of Bard, Oral Tradition, Issue 12, Vol.2, 1997, PP. 263-264.

(28) Stephen Belcher: Op. Cit, PP. 103-104.

(٢٩) محمود كعت: مصدر سابق، ص ٥١.

(٣٠) المصدر السابق، ص ٤٢.

(٣١) السعيدي: مصدر سابق، ص ٧٢، ٧٤.

(32) Thomas A. Hale: Scribes Griots, PP. 92-93.

(٣٣) تاريخ الفتاش، ص ١٥٢.

(34) Lamin Saneh: The Origins of Clericalism in West Africa Islam, the Journal of African History, XVII, No. 1, (1976), P. 67.

(٣٥) كعت: مصدر سابق، ص ١٧٩؛ عبد الرحمن محمد ميغا: الحركة الفقهية ورجالها في السودان الغربي من القرن ٨ إلى القرن ١٣ الهجري، منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المملكة المغربية، ٢٠١١، ص ٦٣.

(٣٦) خلدت الروايات الشفوية ذكر المعارك الكبرى التي انتصر فيها جيش مالي، وأسماء المدن التي شهدت هذه المعارك، ولاسيما في عهد ماري جاطة الأول. وكانت مدينة جنى من بين المدن التي خلدتها الروايات الشفوية والأشعار لأنها كانت تحت حكم سومانجورو وأهم مراكز قوته التي استطاع سندياتا انتزاعها منه، انظر:

David C. Conrad: A Town called Dakajalan: the Sanjata Tradition and the Question of Ancient Mali's Capital, the Journal of African History, Vol. 35, No. 3, 1994, P. 364.

(37) Boubou Hama: Recherches sur l›histoire des Touareg Sahariens et Soudanais, Présence Africaine, Paris,1967, P. 230.

(٣٨) ملوك السودان أهل سنغي، ص ١٥.

(٣٩) المصدر السابق، ص ٢٧.

(٤٠) انظر جبريل بن المهدي: إمداد الصحوة الإسلامية بخلاصة تاريخية محررة عن إمبراطورية سنغاي الإسلامية ـ برهنة علمية على الهوية الإسلامية الأصيلة للشعوب السودانية في أفريقية الغربية، مكتبة التوبة، المملكة العربية السعودية، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٤م، ص ٤٢؛ هارون المهدي ميغا: تحـريف دلالات الألـقاب والـوقوع في أخطـاء تاريخـية بغـرب

أفـريقيا» دلالات ألقاب الملوك في إمبراطورية سنغاي نموذجا «، مجلة دراسات أفريقية، جامعة أفريقيا العالمية، العدد ٤٥، ص ٥٥.

(٤١) هارون المهدي ميغا: مرجع سابق، ص ٦٣.

(42) Horeya T. Megahed: The Empires of Western Sudan, «A Political Analysis», African Studies, Issue 1, 1972, P. 23.

(43) Ibid,P. 28.

(٤٤) تحكي ملحمة سندياتا التي يرويها الماندنجو حتى يومنا هذا ويتغنون بها في سهراتهم وحفلاتهم أن ملك الصوصو المدعو سومانجورو هاجم كانجابا بجيش كبير، فخربها وقتل معظم أهلها كما قتل جميع أفراد الأسرة الحاكمة ماعدا الطفل الرضيع ماري جاطة أو سندياتا ابن الملك ماري ماجان كيتا، وقد هربت سوجولون أم ماري جاطة بابنها الرضيع معلقًا على ظهرها، وهربت معها بنات ماري ماجان الأخريات، ولجأت هذه البقية من الأسرة الحاكمة إلى بلاط أحد ملوك غانة حيث تربى ماري جاطة في رعاية أمه وأخواته. وتشير الملحمة إلى أن ماري جاطة كان كسيحًا لا يستطيع الوقوف على قدميه، ولكن أمه وأخواته ظللن من حوله تغنين له استحثاثًا له ليقف على قدميه طيلة الأيام ويصلين لله أن يمنحه القدرة طيلة الليالي حتى أثر غناؤهم فيه، واستجاب الله لدعائهن فوقف على قدميه وهو في العاشرة من عمره، ومن هنا بدأت تربيته على الفروسية والرماية لينتقم لأهله ويستعيد ملك آبائه ويحرر شعبه من سيطرة ملوك الصوصو، وبرز في الفروسية والرماية كما برز في القيادة حيث جمع حوله عددًا من الفرسان من أبناء كانجابا ومن الماندنجو كون بهم نواة جيشه الذي تحرك بقيادته نحو كانجابا، ونياني، وانضم إليه الآلاف من الماندنجو أثناء تحركه لتحرير أرضهم حتى بلغ عاصمة ملك آبائه في عام ٦٢٨ه/١٢٣٠م، وطرد منها الصوصو، وأعاد بناء ملكه في نياني واتخذ منها عاصمة له، وأخذ يحرر الأرض من حولها تدريجيًا، واتجه بجيوشه إلى الشمال حيث دارت المعركة الفاصلة، معركة كيرينا عام ١٢٣٥م وانتصر ماري جاطة انتصارًا ساحقًا على سومانجورو وجيشه، انظر:

Maurice Delafosse: Les Noires de l'Afrique, Paris, 1922, PP. 55-63, Stephen Belcher: Op. Cit, PP. 101-102.

(42) Horeya T. Megahed: The Empires of Western Sudan, «A Political Analysis», African Studies, Issue 1, 1972, P. 23.

(43) Ibid,P. 28.

(٤٤) تحكي ملحمة سندياتا التي يرويها الماندنجو حتى يومنا هذا ويتغنون بها في سهراتهم وحفلاتهم أن ملك الصوصو المدعو سومانجورو هاجم كانجابا بجيش كبير، فخربها وقتل معظم أهلها كما قتل جميع أفراد الأسرة الحاكمة ماعدا الطفل الرضيع ماري جاطة أو

سندياتا ابن الملك ماري ماجان كيتا، وقد هربت سوجولون أم ماري جاطة بابنها الرضيع معلقًا على ظهرها، وهربت معها بنات ماري ماجان الأخريات، ولجأت هذه البقية من الأسرة الحاكمة إلى بلاط أحد ملوك غانة حيث تربى ماري جاطة في رعاية أمه وأخواته. وتشير الملحمة إلى أن ماري جاطة كان كسيحًا لا يستطيع الوقوف على قدميه، ولكن أمه وأخواته ظللن من حوله تغنين له استحثاثًا له ليقف على قدميه طيلة الأيام ويصلين لله أن يمنحه القدرة طيلة الليالي حتى أثر غناؤهم فيه، واستجاب الله لدعائهن فوقف على قدميه وهو في العاشرة من عمره، ومن هنا بدأت تربيته على الفروسية والرماية لينتقم لأهله ويستعيد ملك آبائه ويحرر شعبه من سيطرة ملوك الصوصو، وبرز في الفروسية والرماية كما برز في القيادة حيث جمع حوله عددًا من الفرسان من أبناء كانجابا ومن الماندنجو كون بهم نواة جيشه الذي تحرك بقيادته نحو كانجابا، ونياني، وانضم إليه الآلاف من الماندنجو أثناء تحركه لتحرير أرضهم حتى بلغ عاصمة ملك آبائه في عام ٦٢٨هـ/١٢٣٠م، وطرد منها الصوصو، وأعاد بناء ملكه في نياني واتخذ منها عاصمة له، وأخذ يحرر الأرض من حولها تدريجيًا، واتجه بجيوشه إلى الشمال حيث دارت المعركة الفاصلة، معركة كيرينا عام ١٢٣٥م وانتصر ماري جاطة انتصارًا ساحقًا على سومانجورو وجيشه، انظر:

Maurice Delafosse: Les Noires de l'Afrique, Paris, 1922, PP. 55-63, Stephen Belcher: Op. Cit, PP. 101-102.

45 () Koubbel L. E: Puissance De Songhay, Essai De l'étude d'un régime Socio-politique, Publications De Scientifiques, Moscou, 1974, P. 275.

46 () Thomas A. Hale: Scribe, Griot, and Novelist, P. 22.

(٤٧) بحسب ما أوردته الرواية الشفوية، لم تكن الحرب بين سندياتا وسومانجورو مجرد حرب بين اثنين من أفضل القادة العسكريين الذين عرفتهم منطقة السودان الغربي، بل كانت أيضًا حربًا بين اثنين من أمهر السحرة، الذين برعوا في فنون السحر، ولذلك كانت الحرب معبرة عن صراع بين قبيلتين من أكبر قبائل السودان الغربي، وكانت في الوقت نفسه، منافسة قوية بين القوى السحرية التي تؤمن بها كل قبيلة، انظر:

Clement A. Okafor: Oral Traition and Civic Education in Africa, International Education Journal, Vol.5, No.3, 2004, P.414.

(48) Alice Louise Willard: Rivers Of Gold, Oceans Of Sand: The Songhay In The West African World- System, Doctor Of Philosophy, The John Hopkins University, Mary Land, U.S.A, 1999, PP. 418, 422.

(49) Nehemia Levtzion: Islam In Africa To 1800 Merchants, Chiefs, And Saints, in John L. Esposito (Editor): The Oxford History of Islam, Oxford University Press, New York, 1999, P.478.

(50) Diallo Boubacar Séga: L' Empire Songhay: Histoire De L' Afrique De L'Ouest, In: www.histoire afrique.org/IMG/pdf/Empire_Songhoy.pdf, P.6 .

(51) Ibid, PP.10-11.

(٥٢) الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الخامس: الدولة السعدية، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٥، ج ٥، ص ١٢٢.

استمرت العادات والطقوس المحلية ملقية بظلالها على الحرب في ممالك السودان الغربي، فعندما نجح الغزو السعدي في إسقاط مملكة صنغي، سادت حالة من الفوضى وعدم الاستقرار، وزادت الصراعات القبلية حدة خلال الفترة الممتدة ما بين ١٠٠٠- ١٠٦١هـ/ ١٥٩١-١٦٥٢م، نتيجة لتطلع القبائل الكبرى لاستغلال الموقف لصالحها على حساب القبائل الأخرى، بل إن القبائل الكبرى في ظل حالة التنافس هذه أخذت تنقسم على نفسها، وينتج عنها عدد من الدويلات القبلية الصغرى، فقبائل البامبارا على سبيل المثال انقسمت إلى دويلتين، وهما: سيغو، وكارتا، اللتين تعاونتا في فرض نفوذهما على جماعات الفلاحين على طول مجرى نهر النيجر، وعلى القبائل المجاورة التي تم إخضاعها بالقوة، وما لبث أن وقع الخلاف بين الدويلتين حول غنائم الحروب، فوقعت الحرب بينهما، وكان للكهنة في الدويلتين قدر كبير من السلطة الروحية والعقائدية، الذين أخذوا يستخدمون الأصنام والطلاسم والتعاويذ التي ترجح كفتهم في الحرب، بل إن أحد الملوك خلال هذه الحرب ويدعى ما ماري، أراد إقامة حصون حول عاصمة دولته، واستدعى الكهنة واستشارهم لهذا الغرض، فأشاروا عليه بضرورة دفن ستين شابًا، وستين شابة بكرًا أحياء تحت الحصون قبل إنشائها بهدف إرضاء الآلهة حتى تكون تلك الحصون قادرة على حمايتهم من هجمات الأعداء، انظر: عثمان برايما باري: جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الأفريقي، دار الأمين للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠، ص ١٢-١٤.

(53) Alice Louise Willard: Op. Cit, P. VI.

(54) Daniel McCall and Reed F. Stewart: Reconstructing Early Mande Civilizations: Ghana and Mali, Bulletin of the American Schools of Oriental Research, Supplementary Studies, No. 20, Reconstructing Complex Societies: An Archaeological Colloquium (1974), P.42, John William Johnson and Thomas A. Hale and Stephen Belcher: Op. Cit, P.126.

قبل معركة كيرينا التي خاضها سندياتا ضد سومانجورو ملك الصوصو عام ١٢٣٥م اجتمع مجموعة من الشعراء الجريوت وأخذوا يذكرون القادة والمحاربين بذكريات الأجداد وبطولاتهم، ويحفزونهم على ضرورة أن يتركوا سيرة طيبة للأجيال القادمة، انظر:

Thomas A. Hale: Scribe, Griot, and Novelist, P.37, Le Mali Medieval, Civilisations, Vol.12, No.2, 1962, P. 250

(55) Thomas A. Hale: From the Griot of Roots to the Roots of Griot, Thomas, P.40.

(٥٦) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق وتقديم عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٩٩٧، المجلد الرابع، ص ٢٥٧ ــ ٢٥٨.

(٥٧) كلمة سندياتا تعني « الأسد الجائع » بلغة الماندي، وهو الأمر الذي يجسد كيفية الربط بين شخصية المحارب، وصفات القوة والشجاعة بحسب التقاليد المحلية السودانية، انظر: كولين ماكيڤيدي: أطلس التاريخ الأفريقي، ترجمة مختار السويفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٩١.

(58) Thomas A. Hale: Scribe, Griot, P. 96.

(59) Stephen Belcher: Op. Cit, PP. 103-104.

(60) Alice Louise Willard: Op. Cit, PP. 418-419.

(61) Ibid, P. 429.

(62) Thomas A. Hale: Scribe, Griot and Novelist, P.76.